تقرير

شوقي عشقوتي

الحرب الأميركيّة ـ الإيرانيّة أعادت خلط الأوراق والحسابات خارطة المواقف الدوليّة: الصين، روسيا، أوروبا

الحرب الاميركية ـ الاسرائيلية مع ايران تندرج في سياق استراتيجي واسع يعاد فيه تشكيل النظام العالمي. ويمكن القول ان استهداف ايران اليوم انما هو "اعلان حرب" على التوازن الدولي الناشئ برمته، وان سيناريو سقوط النظام فيما لو حصل ووصول حكومة موالية للغرب الى سدة الحكم في ايران سيكون مثابة زلزال جيوسياسي وتحول كبير، وستكون الصين وروسيا واوروبا الاكثر تأثرا به. فكيف تتموضع هذه القوى العظمى الثلاث بازاء هذه الحرب؟!

رغم ما تمثله ايران من اهمية استراتيجية، حافظت موسكو وبكين على موقف ديبلوماسي رافض للحرب الاسرائيلية على ايران، من دون انخراط مباشر فيها. ويرى مراقبون ان هذا الموقف يعكس حسابات المصالح، فالصين حريصة على تجنب صدام مع الولايات المتحدة وشركائها الاقتصاديين، فيما تنشغل روسيا بحربها في اوكرانيا. ويشير هؤلاء الى ان طهران، التي قدمت دعما عسكريا لموسكو في حرب اوكرانيا، وقدمت حسومات كبيرة للصين في اسعار النفط، كانت تتوقع دعما ومعاملة بالمثل. الا ان العلاقات الثلاثية، رغم توصيفها بالشراكة الاستراتيجية، ما زالت دون هذا المستوى. في الواقع، تتفق موسكو وبكين على طريقة التعامل مع النظام الايراني، كورقة ضغط لا كحليف استراتيجي. وبينما تضع بكين نصب اعينها المسائل المرتبطة بأسواق الطاقة، كهدف من علاقتها بطهران، تحاول روسيا الاستفادة من طهران كجبهة اشغال تخفف دعم الغرب لأوكرانيا. وفي الحالتين، سيبقى مستقبل علاقة الدولتين مع طهران محكوما بتوازن المصالح الاقتصادية والجيوسياسية، اكثر من الارتباط الايديولوجي او التحالف العسكري المباشر.

في ما يتعلق بالصين: تأتي الحرب الايرانية فيما الحرب التجارية على اشدها بين واشنطن وبكين، وفيما يستعد ترامب لأول زيارة له للصين. في حسابات ترامب ان انقطاع امدادات النفط والغاز المسال والمنتجات البترولية تتضرر منه الصين ودول اسيا، اكثر بكثير من اميركا واوروبا، باعتبار ان الولايات المتحدة لا تعتمد على واردات الطاقة من الشرق الاوسط، بل انها تحولت في العقد الاخير الى "صافي مصدر" للنفط والغاز، وان الصين في المقابل اكبر مستورد للنفط في العالم، بما يقارب 10 ملايين برميل يوميا، ويكفي ان 40% من النفط الذي يمر عبر مضيق هرمز يذهب اليها. لكن في حسابات الصين ان ارتفاع اسعار النفط يضع ترامب تحت الضغط محليا، لأن التضخم اصلا مرتفع الى مستويات قريبة من 3%، وسوق العمل يعطي اشارات ضعف مقلقة، فيما التضخم في الصين لا يتجاوز 1.8%، وهذا يعني ان بكين قد تكون اكثر قدرة على استيعاب صدمة الاسعار في المدى القصير.

في بداية الحرب، توقع البعض ان تبادر بكين الى تقديم بعض الدعم الى طهران، ربما عبر تزويدها المعدات مزدوجة الاستخدام، اي تلك التي يمكن استخدامها لغايات عسكرية او مدنية، كما فعلت مع روسيا خلال حرب اوكرانيا. غير ان الوقائع الحالية جاءت مخيبة لآمال طهران، اذ اقتصر رد الفعل الصيني على بعض التصريحات الديبلوماسية، التي تدعو الى "وقف العمليات العسكرية واحترام سيادة الدول في الخليج". وهو ما بدا كمحاولة للحفاظ على علاقات جيدة مع ايران والدول العربية الواقعة على الضفة الاخرى من الخليج، في وقت واحد.

هذا الحذر الصيني من التورط الى جانب ايران ليس جديدا. فالخبراء الصينيون انتقدوا طوال الفترة الماضية اعتماد ايران الكبير على الحروب بالوكالة، والعمليات غير المباشرة، بدلا من المواجهة المباشرة بالقوى الذاتية، وهو ما يرونه مؤشرا على ضعف داخلي. وزاد من شكوك هؤلاء انكفاء ايران خلال السنوات الماضية، في المواجهات التي خاضها حلفاء طهران ضد اسرائيل، ما أوحى للصين بأن نفوذ طهران الاقليمي مبالغ فيه.

وللصين حسابات اخرى ترتبط بالعلاقة مع الولايات المتحدة. فخلال الفترة المقبلة، ثمة قمة مرتقبة بين الرئيس الاميركي والرئيس الصيني شي جين بينغ. وبينما تأمل في تخفيف التوترات التجارية بين الطرفين، بعد سنوات من المنافسة الحادة، ثمة ما يدفع الصين لتفادي التورط في صراع اقليمي قد يعرقل هذه الجهود الديبلوماسية. أي بعبارة اخرى، لدى الصين ما تخسره هنا إذا قدمت الدعم لطهران، فيما تدور شكوك بالقدرة على الاعتماد على طهران كقوة اقليمية مقتدرة ومؤثرة.

بهذا الشكل، يبقى هناك متغير اساسي حاسم بالنسبة للصين: امن سلاسل توريد الطاقة. فالصين تملك احتياطات نفطية استراتيجية تقدر بنحو 1.4 مليار برميل، وهي كافية لمواجهة اي اضطرابات قصيرة الاجل في الامدادات. غير ان حصول اضطرابات طويلة الاجل، سيؤثر شكل كبير على الاقتصاد الصيني، مما سيضع بكين امام معضلة ينبغي التعامل معها. في هذه الحالة، اذا تعرض النظام الايراني لنكسة، او استقر الوضع بعد تغيير قيادته، من المرجح ان تتكيف الصين بسرعة مع الوضع، عبر بناء علاقة مباشرة مع القيادة الجديدة، لتفادي خسارة الامدادات النفطية. اما إذا صمد النظام على المدى البعيد، فقد تجد الصين نفسها مضطرة لتقديم نوع من الدعم، وان عبر شراء النفط او تقديم تكنولوجيات معينة. بهذا المعنى، اولوية الصين ليست بقاء النظام الايراني ولا حمايته، بل ضمان استمرار تدفق النفط من منطقة الشرق الاوسط، بمعزل عن هوية القيادة الحاكمة في طهران.

> **موسكو وبكين تتعاملان مع النظام الايراني كورقة ضغط لا كحليف استراتيجي**

في ما يتعلق بروسيا: يتصرف الرئيس الروسي فلاديمير بوتين على انه الرابح الاكبر، فقد اجبر ارتفاع اسعار النفط ترامب على تخفيف العقوبات عن روسيا من دون اي ثمن، اذ سمح للهند باستيراد النفط الروسي لمدة 30 يوما. وفوق ذلك، تستفيد الخزينة الروسية من ايرادات اعلى بكثير نتيجة لارتفاع اسعار النفط والغاز.

خسر بوتين خلال شهرين حليفين، اولا نيكولاس مادورو في فنزويلا ثم المرشد الايراني علي خامنئي، بفعل التدخلات العسكرية الاميركية. ومع ذلك، تعامل بوتين مع المستجدات بحذر شديد، فاكتفى بارسال رسالة تعزية بعد مقتل علي خامنئي، ورسالة تهنئة بعد انتخاب نجله مجتبى قائدا ومرشدا جديدا. لكن الدعم العسكري المباشر كان محدودا، قياسا بالدعم الذي قدمته طهران لروسيا خلال حربها في اوكرانيا.

وسرت معلومات عن محاولات روسية متزايدة للدخول على خط الوساطة، بعدما بحث كل من بوتين ونظيره الاميركي، في اتصال هاتفي مطول، الحرب على ايران، والتي قدم الاول للثاني مقترحات عدة في شأنها. والحديث عن مساعٍ روسية للتوسط بين واشنطن وايران لا يأتي من فراغ، بل يندرج ضمن تقليد طويل من الديبلوماسية الروسية التي تسعى لتثبيت موقع موسكو كقوة ضامنة للتوازنات الدولية، وحجز دور لها في الشرق الاوسط.

واي مبادرة ستستند الى مجموعة من المبادئ، وعلى رأسها منع الانزلاق نحو حرب اقليمية شاملة، قد تؤدي الى امتداد الفوضى الجيوسياسية في مناطق اخرى، من مثل القوقاز واسيا الوسطى، والتي ترتبط بالأمن القومي الروسي بشكل مباشر. كما قد تتجاوز الوساطة الملف النووي لتشمل قضايا الامن الاقليمي وحرية الملاحة ودور الفاعلين الاقليميين المستقبلي. كذلك، يحتمل ان يتم، بالتوازي مع المحادثات حول ايران، بحث الفوائد المستقبلية لروسيا في ما يتعلق بالملف الاوكراني، بما يشمل ازالة العقوبات عن كبرى المصارف وشركات النفط الروسية. في الوضع الحالي، يستفيد بوتين حاليا من انشغال الولايات المتحدة بالحرب في الشرق الاوسط. وهذا ما يعكس نظرته الى ايران، بوصفها شريكا مؤقتا وورقة تفاوض في نزاعه مع الغرب، لا بوصفها حليفا قويا ينبغي الدفاع عنه او التضحية لأجله.

وبالانتقال الى اوروبا القلقة من الحرب الدائرة بين ايران من جهة والولايات المتحدة واسرائيل من جهة اخرى، فان الاكثر قلقا هي الترويكا الاوروبية (فرنسا ـ المانيا ـ بريطانيا) التي تربطها علاقات وثيقة دفاعية واستراتيجية وانسانية مع دول الخليج. وجاء استهداف قاعدة "أكروتيري" العسكرية البريطانية في قبرص، العضو في الاتحاد الاوروبي، ليجد الاوروبيون انفسهم مدفوعين لهذه الحرب.

قبرص هي الدولة الاوروبية الوحيدة التي تتأثر مباشرة بالحرب بعد ان استهدفت قاعدة "أكروتيري" مرتين. وتبين الحشود البحرية التي ◄

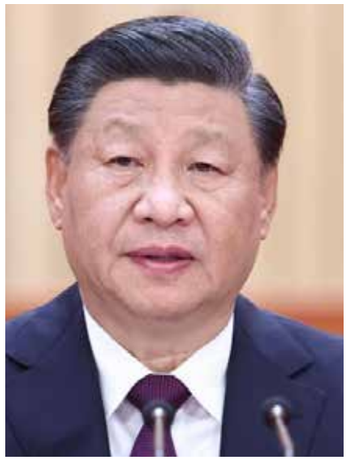

تقاطرت الى مياه الجزيرة مدى الخطر الذي يستشعره الاوروبيون. ففرنسا وحدها ارسلت حاملة الطائرات الوحيدة التي تمتلكها الى شرق المتوسط مع سفن المواكبة والحماية.

والحال ان الاوروبيين معنيون بهذه الحرب وتبعاتها، اذ تربطهم بالمنطقة الخليجية علاقات ومصالح على مختلف المستويات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والتجارية، وخصوصا قطاع الطاقة. كما ان لهم مصلحة مباشرة فيها، نظرا الى اعتماد الطيران الاميركي على قواعد موجودة في اراضيهم او في قواعد تنتشر خارجها، سواء في المحيط الهندي او في منطقة الخليج نفسها.

تندرج المقاربة الاوروبية في 3 سياقات مترابطة الى حد بعيد. اولها، الحرص الاوروبي على العمل بالالتزامات المنصوص عليها في الاتفاقيات الدفاعية المبرمة بين فرنسا وبريطانيا مع عدد من الدول الخليجية.

تبرز بوضوح التزامات باريس ولندن في المنطقة الخليجية، وتبين مدى اهمية مساهمتهما في رد الاعتداءات الايرانية. بيد ان للبلدين دورا لا يقل اهمية، وعنوانه السعي الى إبقاء الممرات البحرية مفتوحة امام الملاحة في مضيق هرمز، احد اهم شرايينها في العالم نظرا لأن 20 في المئة من البترول والغاز تمر عبره الى الاسواق العالمية، خصوصا الشرق الاقصى. لهذا الغرض، اطلقت باريس سلسلة من المشاورات لتشكيل هذا التحالف الذي يراد له ان يكون شبيها بعملية "اسبيديس" الاوروبية

بوتين الرابح الاكبر ... ويطرح نفسه وسيطا

التي اطلقت في عام 2024 لضمان الابحار في البحر الاحمر، او تطويرا لها بحيث تمتد مهامها نحو مضيق هرمز.

في الواقع، يشعر الاوروبيون في هذه الحرب بالتهميش، اذ لم تستشرهم الادارة الاميركية او تطلعهم على خططها الحربية ضد ايران، كما لم تضعهم لاحقا في صورة مخططاتها واهدافها. وما لا يريدونه هو الخلط بين ما يسعون اليه كأوروبيين، وبين مما تخطط له الولايات المتحدة. ويرغب الاوروبيون في انضمام دول اسيوية ابرزها الهند الى التحالف.

حتى الان، اقتصر الدور العسكري الاوروبي على المساعدة في حماية اجواء ومصالح الدول الخليجية من المسيرات والصواريخ الايرانية. وتتولى هذه المهمة بشكل اساسي فرنسا وبريطانيا، اللتان تمتلكان قواعد عسكرية جوية وبحرية في عدد من الدول الخليجية. وترتبط هذه الدول باتفاقيات دفاعية وتعاون عسكري وعلاقات استراتيجية، فضلا عن المصالح المشتركة. وتعد فرنسا وبريطانيا الاكثر انخراطا في المنطقة الخليجية، الى جانب ايطاليا. غير ان اضطراب حركة الملاحة في مضيق هرمز، الذي تستخدم طهران التلويح باغلاقه وسيلة ضغط على الدول الغربية، وما يترتب على ذلك من ارتفاع اسعار النفط وتأثيره في الاسواق الاوروبية والعالمية، فضلا عن دفع مؤشرات التضخم الى الاعلى وارباك الدورة الاقتصادية، كلها عوامل تدفع الاوروبيين الى الانخراط في هذه الحرب، ولكن من موقع دفاعي محض.

في الواقع، ترتبط مهمة حماية الملاحة في مضيق هرمز بأمرين متلازمين: اولهما ان تكشف الدول الاوروبية وغير الاوروبية الراغبة عن مشاركاتها ومساهماتها في القوة البحرية المرتقبة، وثانيهما توفر المناخ الملائم لانتشارها وبدء تنفيذ مهامها. وفي هذا السياق، اوضح ماكرون ان مهمة الاسناد والمواكبة تهدف الى تمكين مرافقة سفن الحاويات وناقلات النفط في أقرب وقت ممكن بعد انتهاء المرحلة الاكثر سخونة من الحرب، لإعادة فتح مضيق هرمز تدريجا. على اي حال، ورغم اندفاعه في هذا الاتجاه، ربط ماكرون ارسال حاملة الطائرات "شارل ديغول" الى محيط مضيق هرمز بتشكيل تحالف دولي، على حد تعبيره، وبمشاركة دول اخرى في هذه المهمة. وتقول باريس ان تشكيل قوة بحرية بهذا الحجم وبهذه المقومات سيمنحها طابعا رادعا، والمهم ان تبقى هذه القوة مستقلة بالكامل عن التحركات الاميركية في المنطقة لتامين حرية الملاحة في مضيق هرمز.